الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - في ذاكرتي

عباس مصطفى سحلي(*)

عندما أتحدث عن هذه الشخصية فإنني أتحدث عن رجل أعطاه الله الصبر والتواضع وبعد النظر. إن من يرافق الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - يحس بذلك أيما إحساس. إنك أمام ملك صالح وهبه الله مفاتيح خيرات هذا الوطن الذي ينعم بها الآن. وهذه نبذة من الذاكرة في أفكار غير مرتبة أسردها كما هي وفاءً وحبّاً إليه، يرحمه الله.

عندما دخل جلالة الملك عبدالعزيز مكة المكرمة والمدن الحجازية وبدأ العهد السعودي المبارك الحكم في الحجاز عام ١٣٤٣هـ كان الاتصال اللاسلكي بين بعض مدن الحجاز يتم بواسطة أجهزة إرسال لاسلكية بدائية تسمى أجهزة (الإسبارك)

(*) ولد في محافظة الوجه، وحصل على دبلوم من معهد دار عمان بالأردن في علوم اللاسلكي، وحصل على دبلومين في التطوير الإداري من القاهرة. بدأ حياته العملية في عام ١٣٥٧هـ في مصلحة البرق والبريد والهاتف، وتشرف بالعمل مراقبًا لاسلكيًا بقصر جلالة الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - حتى عام ١٣٦٥هـ، ثم عين مديرًا للهاتف اللاسلكي والمبرقات في الرياض، ثم كُلِّف بالعمل في منطقة الجنوب لتأسيس خدمة البرق والبريد والهاتف بعد فصلها عن منطقة مكة المكرمة، حتى تقاعد عن العمل في عام ١٤٠٢هـ بعد أن تقلب في عدد من الوظائف في الدولة مؤديًا أعماله بإخلاص وجهد مشهود له من عدد من أصحاب السمو الملكي الأمراء، وممن عاش معه في أدائه الوظيفي .

أي الشرارة، وتتألف هذه الأجهزة من قطع متعددة تستوعبها طاولة خشبية طولها ثلاثة أمتار تقريبًا وعرضها متران. أما أجهزة الاستقبال فكانت أجهزة ضعيفة جدًا بحيث لو صاح ديك بالقرب من غرفة المخابرة فإنه يشوش على المأمور الذي يستقبل المخابرة الواردة إليه من أجهزة الإرسال، وكانت أجهزة الإرسال هذه لا تسمع إلا في النهار، وكانت تعمل على الموجة المتوسطة أو الموجة الطويلة فقط، أما مكة والرياض فكان فيهما محطتان قويتان تعملان على الموجة الطويلة من ماركة " ماركوني "، بدأ تأسيسهما على ما أذكر في عام ١٣٥١هـ. وفي عام ١٣٥٦هجرية استوردت مصلحة البرق والبريد والهاتف أجهزة لاسلكية تعمل على الموجة القصيرة ماركة (RCA) أمريكية الصنع، ثم بعد ذلك استمر استيراد أجهزة الإرسال التي تعمل على الموجة القصيرة من ماركات أخرى، وانتشرت في أغلب مدن المملكة تدريجيًا حتى عمت جميع مدن وقرى المملكة بعد أن كانت محصورة في المدن الكبيرة، مثل : مكة، جدة، المدينة المنورة، ينبع، الوجه، ضبا، العلا، تبوك، الجوف، القريات، أبها، نجران، الظفير، جازان.

أما بالنسبة للاتصالات اللاسلكية المتنقلة التي كانت تصاحب موكب جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - فكانت أجهزة إرسال واستقبال صغيرة، وتحمل على سيارة وتسمى " الشنطة اللاسلكية "، وكانت ترافقه في رحلاته عند سفره إلى مكة أو عند رحلاته للصيد والقنص، وقد تشرفت بالعمل مأمورًا للمخابرة في شنطة جلالته في الفترة من عام ١٣٦٣هـ إلى ١٣٦٥هـ، وكنا نعمل ليلاً ونهارًا حيث كانت جميع اتصالات المملكة ترد إلى جلالته بواسطة البرقيات ؛ لأنه لم يكن آنذاك بريد جوي أو بريد ينقل على السيارات، بل كان البريد ينقل على

الجمال بين مدن المملكة، ولم تكن هناك سيارات لنقل البريد إلا بين مكة والرياض، أو مكة والمدينة المنورة. أو بين المدينة المنورة وينبع فقط. أما بقية مدن المملكة فكان البريد ينقل إليها بواسطة الجمال أو الحمير بالنسبة لمدن الجنوب ؛ لأن مسالكها جبلية وعرة، ويصعب على الجمال السير فيها.

ومن عادة جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - ألاّ يخلد إلى النوم والراحة إلا وقد أجاب على جميع البرقيات التي كانت ترد إلى جلالته، سواء كان في الرياض أو في رحلاته وتنقلاته، وكانت هذه البرقيات ترد إليه - يرحمه الله - بالمئات من جميع أنحاء المملكة، سواء من أمراء المدن وقضاتها أو من أفراد الشعب، وكانت إجاباته - يرحمه الله - لأفراد الشعب تتسم بالحلم وطيب الكلام، وأذكر على سبيل المثال أنني أخذت برقية كانت واردة من جنود شرطة الدمام في أواخر شهر رمضان في عام ١٣٦٣هـ يقولون فيها ما نصه: جلالة الملك عبدالعزيز "نمسك على الماء ونفطر على الماء، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. التوقيع جنود شرطة الدمام". وأرسلت البرقية بعد صلاة العصر إلى الديوان الملكي، ولم يمض على إرسالها ساعتان إلا وقد ورد من الديوان الملكي برقية من جلالته موجهة إلى مدير أموال الأحساء زكي عمر يقول فيها جلالته : "الولد زكي عمر الأحساء: اطلعوا على برقية جنود شرطة الدمام، وحالا اصرفوا لهم رواتبهم، واحرصوا على ذلك" التوقيع عبدالعزيز.

> من عادة جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - ألاّ يخلد إلى النوم والراحة إلا وقد أجاب على جميع البرقيات

في الوقت الذي كنا نتوقع غير ذلك، نظرًا للهجة التي صيغت بها برقية جنود شرطة الدمام، ولكن حلم جلالته كان أوسع من توقعاتنا.

وأذكر عندما كنت موظفًا بلاسلكي الوجه في عام ١٣٥٨هـ أو ١٣٥٩هـ استقبلت برقية من مركز لاسلكي " ذات الحاج " لجلالة الملك عبدالعزيز من أحد التجار السعوديين يقول فيها : إنه أحضر كمية من السمن إلى مركز " ذات الحاج " بقصد بيعه على أهالي المركز والموظفين والجنود، وأن دوريات الحدود ألقت القبض عليه معتقدة أن السمن سيهرب إلى خارج المملكة، وأن الجمارك ستصادر ذلك بعدِّه مهربًا، ويطلب إعفاءه من المصادرة، وكانت حكومة جلالة الملك قد أصدرت أوامر مشددة بمنع تصدير ثروات البلاد من الأغنام والجمال والسمن إلى خارج المملكة لحاجة الشعب السعودي إلى تلك الثروات حيث كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة، وجميع بلاد العالم كانت في ضنك وضائقة معيشية خانقة، وكانت المملكة العربية السعودية - ولله الحمد - في أحسن حال، غير أن الملك عبدالعزيز كان حريصًا على عدم خروج ثروات البلاد، وعدم حرمان الشعب من تلك الثروات، وكان يتولى ذلك بنفسه حيث ترد إليه التقارير أولاً بأول، وكانت إجابة جلالته لذلك التاجر المحتال بعد ساعتين من ورود برقيته دون أن يتلقى - يرحمه الله - أي معلومات من الجهات المختصة، وهذا نص الإجابة :

فلان ابن فلان ذات الحاج : لبرقيتكم أنت الصاحب المزاح، إما شيف وإلا راح، من طرف السمن يصادر. التوقيع عبدالعزيز. فعجبنا جميعًا كيف علم جلالته بحقيقة، موضوع السمن ولم ترد إليه أية معلومات عن حقيقته، وبعد مدة اعترف ذلك التاجر لبعض أصدقائه ومعارفه بأن جميع ما قاله جلالة الملك عبدالعزيز له كان هو الحقيقة؛ لأنه أدخل السمن إلى مركز

"ذات الحاج" فإن لم تعثر عليه الدوريات الحكومية هرّبها إلى خارج المملكة؛ لأن مركز "ذات الحاج" قريب من الحدود، وإن عثرت عليه قال : أريد بيعها على المواطنين في مركز " ذات الحاج ".

هذه نبذة قصيرة جدًا من مضامين مخابرات جلالة الملك عبدالعزيز البرقية التي كانت تمر علينا يوميًا، كنا نرى فيها الحكمة العظيمة، والمواعظ القيمة.

أما بالنسبة لرحلاته - يرحمه الله - بين الرياض ومكة المكرمة لقصد الحج فكانت تستغرق حوالي عشرة أيام، وكانت تصحب موكبه شنطتان لاسلكيتان: واحدة مع موكب الرجال والثانية مع موكب المحرم؛ لأن موكب المحرم يسبق موكب جلالته للمغدّى أو للمعشّى، فمثلاً اليوم الأول يعشّى قبل بلدة مرات، واليوم الثاني في مرات، واليوم الثالث قبل الدوادمي واليوم الرابع في الدوادمي، وهكذا في الدفينة وعفيف والمويه وركبة وعشيرة إلى أن يصل إلى مكة، ولا يصل موكب جلالته إلى أي موقع من هذه المواقع إلا وتكون السيارات المحملة بالملابس الرجالية والملابس النسائية قد قامت بتوزيع تلك الملابس على فقراء البادية رجالاً ونساءً كبارًا وصغارًا، ولم تمض نصف ساعة على وصول الموكب حتى كنا نرى الوادي قد امتلأ بألوان بيضاء وسوداء وحمراء حيث يكون كل فقير قد لبس الملابس التي أهديت إليه. وعندما يحين وقت الغداء أو العشاء تقدم لهؤلاء الفقراء وغيرهم ألوان الأطعمة من الرز واللحم، فيأكلون ويأخذون ما تبقى معهم إلى بيوتهم وهم يرفعون أصواتهم بالدعاء: " الله يحفظك يا عبدالعزيز، الله يطول

عمرك يا عبدالعزيز " . كما أنني كنت أرى بعيني جلالته وهو في سيارته الصغيرة يقذف بالريالات الفضية إلى الفقراء المحيطين بسيارته عند مغادرته للموقع الذي يغادره عادة في الصباح متجهًا إلى موقع آخر، وهكذا حتى يصل جلالته إلى مكة المكرمة.

وبعد حج عام ١٣٦٣هـ مباشرة غادر جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - المملكة بحرًا إلى مياه الإسماعيلية بمصر لمقابلة رئيس الحكومة الأمريكية روزفلت ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل، ولم يعلم أحد بسفر جلالته إلا قلة، وكنا نحن موظفي اللاسلكي منهم بحكم اتصالنا بالمحطة اللاسلكية المرافقة لجلالته في الباخرة التي يستقلها جلالته ونحن في مكة، وعند عودة جلالته أقيمت الحفلات والرقصات الشعبية في مكة المكرمة لمدة أسبوع احتفاء بعودته سالمًا موفقًا. وعند عودة جلالته إلى الرياض وأثناء وصول الموكب إلى الدفينة الواقعة في الطريق إلى الرياض صدر البيان التالي : " إن المملكة العربية السعودية أصبحت في حالة حرب مع دولتي المحور ألمانيا وإيطاليا يستثنى من ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة؛ فإنهما مدينتان مكشوفتان لا تحارِب ولا تحَارَب " . وكان صدور البيان من الموكب الملكي عن طريق اللاسلكي المرافق لجلالته.

كان قدوم جلالته - يرحمه الله - لأي موقع كقدوم الغيث يستبشر به الكبير والصغير والرجل والمرأة

وبعد أن حج عام ١٣٦٤هـ تشرفت بمرافقة موكب جلالته عند اجتماعه مع ملك مصر في شرم ينبع الواقع على البحر والمقابل لجبل " رضوى "، وسمي ذلك الاجتماع اجتماع " رضوى " . وكان موكب جلالته يمر

على جميع القرى الواقعة بين مكة وينبع وجميع أفراد الشعب يهللون ويكبرون مبتهجين برؤية جلالته وبالخيرات التي تسبق وصول موكبه في الذهاب والعودة، إذ كان قدوم جلالته - يرحمه الله - لأي موقع كقدوم الغيث يستبشر به الكبير والصغير والرجل والمرأة.

وفي عام ١٣٦٤هـ وبعد عودة جلالته من الحج ووصوله إلى الرياض غادر جلالته إلى المقناص كعادته، وكان مقناصه في تلك السنة في " روضة خريم " القريبة من بلدة رماح، واستمر بقاء جلالته - يرحمه الله - شهرين. وفي تلك السنة أهدى رئيس الولايات المتحدة روزفلت طائرة من نوع " داكوتا "، وبعد وصولها إلى الرياض أمر جلالته بإحضارها إلى المخيم الملكي، وكنت من ضمن مأمور المخابرة اللاسلكية في الشنطة الملكية اللاسلكية التي كانت على اتصال بلاسلكي الطائرة حتى وصولها إلى المخيم حيث تأخر وصولها بعض الوقت. وجدير بالذكر أن هذه الطائرة كانت النواة لمؤسسة الخطوط الجوية السعودية حيث أمر جلالته بذلك، وهي الآن موجودة في ميدان الطائرة بجدة الواقع بقرب مطار جدة القديم كرمز أثري محبب إلى النفوس، وكلما مررت على موقع تلك الطائرة عادت بي الذكريات إلى الأيام السعيدة التي تشرفت فيها بمرافقة الملك عبدالعزيز يرحمه الله.

وفي كل سنة كان جلالته - يرحمه الله - يأمر لموظفي اللاسلكي ضمن موظفي الدوائر الحكومية الأخرى بالرياض بصرف " بشتين ": أحداهما صيفي " رهيف "، والثاني " جبر " للشتاء، وكنا نعتز بهذه الهدية الملكية، ونعدها وسام شرف لنا.

وكنت أعمل في قصر جلالته - يرحمه الله - بالمربع ومعي سبعة موظفين لا نصرف من رواتبنا أي ريال، إذ كانت كل مستلزماتنا المعيشية على مختلف أنواعها تأتينا من قصر جلالته، وكان مركز لاسلكي المربع قريبًا من مقر مجلسه يرحمه الله. وكان جلالته بعد أن يؤدي صلاة المغرب يستمع إلى قراءة أحاديث نبوية وفقهية وحوله أصحاب السمو الأمراء، وبعد تأدية صلاة العشاء ينصرفون مغادرين إلى منازلهم، يتكرر ذلك في كل ليلة. أما بعد صلاة العصر فكان جلالته يذهب إلى مزرعة سمو الأمير محمد بن عبدالعزيز الواقعة في عليشة ويبقى فيها إلى أن يؤدي صلاة المغرب، ثم يعود إلى قصره في المربع، وكنت أصلي المغرب خلف جلالته مباشرة وهذا دليل واضح على التواضع والبعد عن التعالي، وهذه صفة تميز ملوك آل سعود ورثوها عن مؤسس هذه المملكة العظيمة بمبادئها الشامخة بترابط أبنائها والتفافهم حول قادتهم حتى أصبح كل فرد من أفراد الشعب يتفانى في محبتهم والإخلاص لهم، فلا زالت مجالسهم وقلوبهم مفتوحة للكبير والصغير من أفراد شعبهم.

هذه خواطر غير مرتبة سردتها على طبيعتها وفقًا لما أملته الذاكرة، وهذا غيض من فيض لا تسمح هذه العجالة على الإحاطة ببعضها فما بالك بها كلها... ولكن الذكرى المئوية لتأسيس هذا الكيان العظيم حثت الذاكرة فجاءت بهذا اليسير في مقداره، العظيم في معناه؛ لأن ما يروى عن عظيم لا بد أن يكون عظيمًا.